

## لويس الرابع عشر

طاغية فرنسا

القيم المعنوية هي دلالة الحياة الفاضلة ، وإنسان بلا مبادئ يفقد روحه ، وتنطلق غرائزه من عقائده متحكمة وغاشمة وضارمة تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضاع الميول والرغبات ، ونحن ننسى أن خطايانا نعلم طويلاً وغالباً ما يعجز الزمن عن قتلها . والحكام يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كثيرين منهم كانت ميتهم عنيفة كرد فعل لطغيانهم وجبروتهم ، الشعوب عندما تقرر مواجهة ظالمها فإنها لا تهتم بالتوضيحات في سبيل أن تخلص نفسها من التعاسة والشقاء .

ولقد وصل الأمر بحكم لويس الفرد أن سمي عصر باسمه ، وقيل إن شمس كسفت شموس ملوك عصره ، وكان هذا العصر مليئاً بالانحطاط الأخلاقي وتدهور الفضائل الإنسانية ، وهوت التقاليد فيه إلى الحضيض هذا الطاغية هو لويس الرابع عشر .

ولد الطاغية في ٥ سبتمبر ١٦٦٨م في قصر سان جارمان ، وأمه هي « آن دوتريش » ووالده هو لويس الـ ١٣ الذي تزوج

في سنة ١٦١٥ ، وظلت زوجته لا تنجب لمدة ٢٣ سنة حتى ولدت هذا الابن بعد أن فقدت الأمل في الإنجاب وبعد أن أصيب لويس ال ١٣ بمرض عضال وساءت صحته .

كانت جدته عشيقة لأكثر من رجل ، ماتت الفضيلة في قلبها ، وفقدت القيم وجودها وعاشت للمذات ، وكان أشهر عشاقها أفاقا إيطاليا اسمه « كرونيني » أما عشيقها الثاني الشهير فهو الدوق « بوكنجهام » الإنجليزي والذي كان يطمع في عرش فرنسا .  
وعاش أبوه محروما من السلطة :

ولد لويس ال ١٤ في جو كله دسائس ومؤامرات ويكفي أن نقول : إن جده هنري الرابع قد اغتيل في عام ١٦١٠م ، ولا شك أن كل هذه الظروف أدت إلى تكوين شخصيته وتحديد هويته ، ولقد تولى لويس الرابع عشر حكم فرنسا في عام ١٦٤٣ أي وهو دون الخامسة ومن ثم أصبحت أمه « آن دوتريش » - بنت فيليب الثاني ملك أسبانيا هي الوصية عليه ، والمتحكمة في السلطة ، وهكذا تتشابه ظاهرة ولاية أبيه الحكم وكان المساعد الأيمن للملكة الأم هو الكاردينال « مزران » الذي خلفه « ريشيليو » كوزير أول للدولة الفرنسية وقد واجهت لويس صعوبات جمة عند بداية تسلمه السلطة ، ولعل أهم هذه الصعوبات نشوب حرب أهلية استمرت لمدة ٤ سنوات عرفت باسم حرب « الفورند » ، ظلت

في الفترة من ١٦٤٨ ، وانتهت سنة ١٦٥٢ وقد قادها الأشراف بهدف استعادة امتيازاتهم الأولى ، ولكن مزران نجح في تعبئة الجيوش والانتصار عليها ، وبدأ الأشراف يذعنون لأمر الملك ، ولكن بموت مزران سنة ١٦٦١ كان لويس قد بلغ الثالثة والعشرين ، ورأى أنه قد آن الأوان ليجتمع السلطة في يده ولذا لم يعين وزيراً أول واحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة ورتاسة الدولة وأصبح حتى نهاية أيامه هو الحاكم المطلق لفرنسا فكيف حدث هذا ، ولماذا تحول إلى طاغية يذكره التاريخ بالقسوة والجحود ؟

## ٧٢ عاما في الحكم :

في البداية لنا مجموعة من الملاحظات وهي أن فترة حكم لويس الرابع عشر الرسمية امتدت ٧٢ عامًا أي ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن فهو قد حكم من عام ١٦٤٣ حتى عام ١٧١٥ ، وقد حكم فيها أكثر من نصف قرن بمفرده بعد أن توفي مزران . وكان لويس الرابع عشر خلال تلك الفترة الطويلة من عمر الشعوب ، صاحب النفوذ المطلق المتفوق في البلاد ، وأطلق شعاره الخالد « أنا الدولة والدولة أنا » .

وإذا كان للطاغية صفات وملكات ، يتمتع بها تتضح فيما يمتلك من زهو وغرور واستبداد الرأي والأطماع الواسعة ، التي يستخدم كافة الأساليب المتتوية والدسائس الغامضة للوصول إليها ،

فإن هذه الصفات كانت أظهر ما توجد في لويس التاسع عشر ..  
فقد كان داهية في سياسته ، شب جافى القلب مغلق النفس ،  
كثومًا ، كثير الحذر ، قليل الكلام ، يبطن غير ما يظهر ، ويعمل  
جهده على أن يخفى أفكاره وميوله وهواجسه عن كل ما حوله ،  
ولا شك أن تحليل شخصية لويس ال ١٤ يسبب ارباكًا لدى علماء  
النفس فما بالك بالمؤرخين ، فلقد كان لويس الرابع عشر بحق لغزا  
عسير الحل ومجموعة من المتناقضات الغامضة التي تجمعت في  
النفس الواحدة ، ولا يمكن لأى استقراء لحركة التاريخ أن ينكر  
أن الشعب الفرنسى فى ظل حكم لويس ال ١٤ بددت موارده  
واستنزفت قواه وسلبت ثرواته وكل ذلك لتحقيق أطماع رجل  
واحد وتجميد حاكم أحب السلطة أكثر من حبه للسلام ، ووصل  
بفرنسا إلى مفترق الطرق وأدخل الرعب على قلوب رعاياه ، ووضع  
أهل باريس تحت رقابة مستمرة وقبض على جميع الذين اشتبه فى  
أخلاقهم ونصب المشائق فى أنحاء فرنسا وأحاط نفسه بجيش من  
الجواسيس وكل ذلك ليضمن كرسى الحكم واستمراره فى السلطة .

ولقد بدأ عهد لويس ال ١٤ بالكراهية ، لأن الشعب الفرنسى  
كان يكره أمه الوصية على العرش لأنها أجنبية ، كما أن هذه الأم  
تخلصت من المجلس الذى كان من المفروض أن يساعدها ويرشدها  
إلى أفضل نظم الحكم ، بالإضافة إلى أنها اعتمدت على شخصية  
أجنبية وهى الكاردينال مزران .

طاغية . . لماذا ؟

الأسباب التي خلقت من لويس ال ١٤ طاغية :

أولاً : السلوك العام للملك وحكام تلك الفترة اعتقادًا منهم أن الملك هو ظل الله على الأرض وأن سلطاته مطلقة وأن على الشعب الطاعة ، ولم يكن البرلمان أى وجود حقيقى فى تسيير دفة الحكم .

ثانيا : تحكم النساء كوصيات فى أطفالهن الملوك واستأثرن بالسلطة ولم يكن من السهل انتزاعها إلا بالعدو والضرب بقوة ، كان ذلك واضحا فى أم لويس ال ١٣ التى سيطرت عليه وأم لويس ال ١٤ التى سيطرت عليه وكناتهما وصيتان على العرش لأن ابنيهما كان صغيرا .

ثالثا : الأحداث الداخلية فى فرنسا والتي أدت إلى حرين أهليتين وهما حربا القرون الأولى والقرون الثانية ، ( وكلمة فروند تعنى رماة المقاليح ) وقد عرضت كلتا الحربين الملكيتين فى فرنسا للسخرية والخطر والانهيار والقوضى ، وأدى ذلك إلى القبض بيد من حديد على السلطة وإلى حكم العنف والقوة للقضاء على الثورة ، بل وتعرض لويس نفسه وهو طفل للاغتيال .

رابعا : الحروب الخارجية التى خاضتها فرنسا فى عهد لويس ،

والتي جعلت الحكم شبه عسكري يمنع من خلاله أى حوار أو جدال أو إبداء الآراء لصالح المجتمع ...

خامسًا : شخصية لويس ال ١٤ نفسها والتي دفعته إلى سلوك معين ، وذلك المناخ الذى ترمى فيه وتلك الأوضاع التى شاهدها بنفسه ، كل ذلك دفعه إلى حلبة الطغيان ناسيًا العدالة لبني الإنسان فى وطنه .

ولقد ساعد لويس على طغيانه مجموعة من المستشارين ، الذين أحاطوا به ونذكر منهم « ليون » للسياسة الخارجية ، فوكيه للشئون الاقتصادية ، لوتليه للشئون الحربية ، ولم يلبث أن حل « كولبير » الاقتصادى الفرنسى الشهير محل « فوكيه » ، ومن خلال هؤلاء المستشارين انفرد لويس الرابع عشر بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة .

وإذا كنا لا ننكر البداية الناجحة للويس عند إمساكه بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعفيه مما أصاب فرنسا بعد ذلك من انهيار اقتصادى ، وتأثر مبرانية فرنسا بسبب تلك الحروب التى خاضها لويس ال ١٤ ، ولم تكن فرنسا لتجنى من وراثتها شيئًا صحيح أن لويس اهتم بتنظيم الشئون الاقتصادية ، كما أنه اعتنى بالجيش والبحرية ، حتى وصل عدد الجيش إلى ما يقرب من ٣٥٠,٠٠٠ جندى خلال حوض حروبها مع أعدائها ، أيضًا اهتم لويس ال ١٤ بالعلوم والفنون

وقد ظهر في عهده كتاب فرنسيون عظام أمثال « مولير وراسين وكوريني ولافونتين » ، واهتم لويس بالأكاديمية الفرنسية التي كانت قد أنشئت عام ١٦٣٥ وفي عهده تأسست أكاديمية العلوم وأكاديمية التصوير والعمارة .

وكلها في الحقيقة كانت بدايات رائعة ، وكعادة كل الطغاة ، البداية مائة في المائة ولكن الخاتمة مأساة فاجعة ، بعد أن أصبح الأمور ملك يمينه وبعد أن يضمن سيطرته ، ويكون قد اشترى أصوات معارضيه بالأمل أو بالسراب ، بالحلم أو بالخيال والقوة والعنف إن لزم الأمر .

#### حروب لويس :

خاض لويس ال ١٤ عدة حروب كان تأثيرها سيئاً على فرنسا ، ولم تكن إلا لتحقيق أطماعه التوسعية في أوروبا ، وأول هذه الحروب هي حرب الأراضي المنخفضة بين عامي ١٦٦٧م - ١٦٦٨ ، وهي الحرب الموجهة ضد بلجيكا ، ثم الحرب الهولندية بين عامي ١٦٧٢ ، ١٦٧٨ ، والتي ترتبت على الحرب الأولى من منطلق أن هولندا وقفت ضد أطماع فرنسا في بلجيكا ، ثم الحرب الثالثة وهي حرب عصبة أو جزيرج وهي الناتجة عن سحق العالم البروتستنتي على لويس ، نظراً لقيامه بإلغاء امتيازات البروتستنت الفرنسيين ، وأخيراً حرب الوراثة الأسبانية ، والتي كانت فرنسا تقصد من

ورائها ١٧٠٠-١٧١٣ إلى فرض حليف لها على العرش الأسباني ،  
وهذه الحروب الأربعة لم تكسب فرنسا من ورائها شيئاً ، بل لقد  
خسرت الكثير من الأموال والمعدات وساءت الأحوال فيها بدرجة  
لا مثيل لها .

لقد كان لويس الرابع عشر يعتقد أن :

الملك يمثل الإله وهو نائبه على الأرض ، ويتمتع بسلطة مقدسة  
مستمدة من الإله نفسه ، وأن مباشرة سلطته لا يمكن تجزئتها أو  
التنازل عنها للغير ، لأنها من حقوق الملك وحده الذي يسأل عن  
استخدامها أمام الله فقط ، فالوزراء أداة يختارهم الملك لتنفيذ أوامره ،  
ولا يمكن للشعب أن يكون له أى حق فى الاشتراك فى الحكومة ،  
والملك وحده هو الدولة لأنها كنظام سياسى لا وجود لها إلا فى  
شخص الملك وحده ومن أجل ذلك جمع لويس ال ١٤ أسباب  
السلطة فى يده دون مشاركة أحد من حوله أو من مساعديه .

وقبل أن أعرض لنماذج من طغيانه يجب أن أقول : إن حروب  
فرنسا المستمرة فى عهد لويس ال ١٤ أدت إلى إذلالها فى بعض  
المواقف وجعلتها تفقد زهرات شبابها وصحب ذلك كله انتشار  
البؤس والذعر فى كل مكان لدرجة أن الدعوات لوقف هذه الحروب  
كانت مطلباً للجميع ، ولقد صدق حقاً من قال إن المصائب لا تأتى  
فردى ، فكأنما الدهر قد تعهد على أن يلقي بكل ما فى جعبته

من مصائب ونكبات على لويس ال ١٤ ، الذى حكم منفردًا من خلال مجلس سرى وجمد طبقات الأمة وجعل شعاره « أنا الدولة والدولة أنا » أهلوبًا للمركزية المطلقة ، ولم يفرق بين خزانة الدولة وجيبه الخاص ، وكان إرادة السماء تريد أن تذيبه ألوان العذاب كجزء من العقاب ، فقد أصيب ولى عهده يوم ١٨ أبريل سنة ١٧١١م بوعكة بسيطة ولكنها أودت بحياته بعد ٢٧ يومًا ، وحزن الملك على ابنه حزنًا شديدًا حيث تغيرت شخصيته تماما فأصبح زاهدًا فى الحياة ..

#### حركة الأسقف جانسن :

ولقد اتبع لويس ال ١٤ أساليب العنف للقضاء على حركة الأسقف « جانسن » « وأتباعه » وهم الذين مثلوا فئة الزهد والتقشف فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ولكن البابا وقف ضدهم وحرص لويس عليهم ، وكانت الوحشية المنقطعة النظير التى اتصفت بها هذه الفئة صفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى فى فرنسا جلبت اللعنة على لويس ال ١٤ .

#### نماذج الطغيان :

لعل تعدد الأخطار التى ارتكبها لويس فى حق شعبه جعلت من هذه الأخطاء آثامًا وخطايا ، وكان أشد هذه الخطايا عنفًا ،

عداء لويس لطائفة البروتستانت الفرنسية التي عرفت باسم « الهيجونوت » ، وتحت ميل هؤلاء إلى أعداء فرنسا انساق لويس لرأى مستشاريه ، وألغى امتيازاتهم التي كانوا قد حصلوا عليها في مرسوم ملكي يطلق عليه اسم «مرسوم نانت» سنة ١٥٩٨ في عهد جده ، ولكن لويس وقع قرارًا في أكتوبر ( الأول منه ) سنة ١٦٨٥ بإلغاء هذا المرسوم مما كان يعني إزالة مواطن الأمان وهدم معابد البروتستانت وحرمانهم من حرية العبادة ، ومن حرية مزاوله شعائرهم الدينية ، وترتب على هذا الألغاء أيضًا طرد رجال الدين البروتستانت وإرغامهم على تربية أولادهم على مبادئ الديانة الكاثوليكية ؛ واتباع طقوسها والخضوع لنظمها فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وأثبتت الأحداث أن لويس الـ ١٤ ارتكب بهذا الألغاء خطأ شنيعًا ، لأنه أدى إلى اضطهاد ديني عنيف ، وهاجر الهيجونوت « أى البروتستانت الفرنسيون » إلى الدول البروتستانتية فخسرت فرنسا بذلك خسارة كبرى وخاصة أن معظم هؤلاء كانوا من الحرفيين ، والعمال المهرة وكذلك من كبار رجال المال والأعمال والصناعة فصفوا أملاكهم ، ورحلوا إلى الخارج ففشلت الحركة الاقتصادية في فرنسا وحدث ارتباك في خطوط الإنتاج بها ، لأن الاضطهاد الديني ليس من ورائه إلا انقسام الأمة وحدث الفوضى الاجتماعية ، والفقراء الذي لم يستطيعوا الهجرة كونوا عصابات أقلقت الأمن ، كذلك بدأت تقوى الدول التي هجر إليها الهيجونوت لدرجة أنه قيل إن النهضة الصناعية في ألمانيا بدأت تنمو وتنشط

مع هجرة الهيجونوت إليها ، وبمقارنة الأوضاع الاقتصادية في فرنسا قبل إلغاء المرسوم وبعده نجد الفرق شاسعاً ، وبدأت فرنسا ترى الأيام القاتمة والليالي الحالكة واختنقت البسمة أمام الظلم الاجتماعي ، وانتهى عهد الحفلات والولائم التي اشتهرت بها فرنسا إلى درجة أن آخر أيام لويس الـ ١٤ كانت شرمًا على فرنسا .

وساهمت الطبيعة بنصيب كبير في المحن والنكبات فاشتد البرد وأتلفت المحاصيل وفاضت الأنهار ، ولأول مرة تقوم فرنسا باستيراد القمح من بعض الدول بأسعار فاحشة لمنع حدوث مجاعة ، وأصبحت الطرق غير صالحة والكبارى والجسور مهدمة وشتت الحركة التجارية ، وعجز كل فرد عن الوفاء بديونه وتسديد الضرائب المفروضة عليه ، وأعلن كبار الأغنياء إفلاسهم وقامت عدة ثورات بسبب الجوع ومما زاد الطين بلة أن الملك لويس ، أرقق الدولة بنفقاته فقد كان في رحلاته يصحب معه كثيرًا من السيدات ويأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات واستلزم ذلك عددًا كبيرًا من العربات والحرس والخدم وتطلب نفقات باهظة .

ومما يؤثر عن لويس الـ ١٤ - أسوة بكل الطغاة - حبه الشديد للمدح والإطراء والملق فتفانى كل المتصلين به - ويا ويل الشعوب من مواكب النفاق وذوى الضمائر المعدمة - في إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكي يحظوا بعطفه ورضاه وقيل :

إن لويس كان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه .

بين التفلق والتملق :

وكعادة الطغاة ، نجد أن لكل طاغية هواية معينة ، فمنهم من عشق الموسيقى ، ومنهم من فتن بفن الرسم ، وكان لويس ضمن من قرضوا الشعر في وقت ما ، حيث أخذ ينظم بنفسه بعض الأبيات فألف قصيدة غزل وضح أنه لامعنى لها ومحشوة بالأخطاء وبينما كان يقرؤها وصل الماريشال « دى جرامون » وكان مشهوراً ببراعته فى التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق فى فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التى كتبها وقال اقرأ قصيدة الغزل هذه ، وقل لى بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت فى حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة فأنت تعلم أننى أنظم أشعاراً ولهذا يبعث لى الكثير بقصائد وأشعار من كل نوع .

ويعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال :

« إن كلام جلالتك مقدس بدون أدنى شك وحكم جلالتك على الأمور إنما هو حكم مقدس حقاً ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقع قصيدة قرأتها فى حياتى » ... فضحك الملك كثيراً وقال : « ألا ترى أيضاً أن مؤلفها كثير الإعجاب بنفسه وأحمق » فأجاب الماريشال « إنه يا مولاي لا يستحق غير هذا الوصف الدقيق » .

قال الملك : إننى مسرور حقاً لأنك تكلمت بكل صراحة ،  
فأنا الذى نظمته ... ذهل المارشال وقال : يا للخيانة ، أتمس  
من جلالتكم بإعادتها إلى لأنى قرأتها بسرعة وبدون ترو .  
فرد الملك قائلاً : كلا يا مارشال لن أعيدها إليك فإن الكلمات  
الأولى هى التعبير الحقيقى والطبيعى لما يجول فى خاطر ، ولعل  
هذا النموذج للنفاق والرياء والتلق من جانب الحاشية والفتة المنتقاة  
التي تدعى بالصفوة والتي تعاشر الحاكم ليلاً ونهاراً الدليل على أنها  
تخلق فيه نغمة الغرور بصورة التقديس والتأليه .

#### مدام سكارون :

وكعادة كل الطغاة ، كان لابد أن يخضع لويس الـ ١٤ لسيطرة  
إحدى النساء ... هذه المرة هى مدام « سكارون » وهى فاتنة  
جميلة من أصل نبيل ذات نهد بارز ، وجسد فائر ، ووجه ملائكى ،  
وتحمل عطفاً لا حدود له ، عندما توفى زوجها الشاعر دخلت  
هذه المرأة فى خدمة الأسرة المالكة ، وظلت تتقرب للملك لويس  
الـ ١٤ وبالذات بعد وفاة زوجته فى ٣٠ يونيو سنة ١٦٨٣ ،  
وكان جرح حبه الأول قد طاب وشفى ، وقد منح لويس مدام  
« سكارون » لقب مركيزة « دى مانتينون » ، ولم يلبث أن تزوجها  
سنة ١٦٨٤ ، ثم وقع تحت تأثيرها ولذا كان يمضى أوقات العمل  
فى حجرتها حيث كان يستقبل الوزراء وكبار الموظفين بينما هى

تجلس بجانبه على مقعد وثير ، صحيح أنها كانت لا تتدخل في المناقشات ، ولكن هذا لم يكن يمنع أن يستشيرها الملك في كل شيء يعرض عليه بأن يلتفت إليها قائلاً :

« ما هو رأيك الصائب » ، وزاد تدخلها رويداً رويداً في شئون الدولة وفي توجيه سياسة الملك ، حتى أصبح لها تأثير في كل عمل من الأعمال بشكل واضح ، وخضع لها الملك خضوعاً تاماً فلم يعد ينفذ أمراً إلا بعد موافقتها .

ولقد ظل لويس ال ١٤ حتى لحظاته الأخيرة يعمل بمشورة « مدام دي ماتينون » التي بدأت معه كمحظية وانتهت كزوجة ، ثم أصبحت مستشارة ، ثم جاءت لحظة السيطرة والتسلط وذلك ليس بغريب على طاغية ، لأن هتلر كانت لديه إيفا بروان ، وموسوليني كانت لديه كلارا ، وستالين كانت لديه زوجته الثالثة ، كما أن أتاتورك كان لديه أكثر من واحدة ، وغير هؤلاء مما تمتلئ بهم قصص الطفافة ، والتي هي في الواقع ليست من نبت الخيال ، وإنما هي روايات تاريخية صحيحة بأسانيد مدعمة لدى أكثر من مصدر ... ولا شك أن التسلط من جانب المرأة على رجل الحكم كفيل بضياع صوابه وفساد آرائه .

### فضائح الحكم :

لقد كانت معشوقات الملك يسنن الدولة ، ويتحكمن في رقاب مسئوليتها ، ولم تكن وظيفة الوزراء إلا مطاردة الأزواج الشرفاء

ليحظى سيدهم بزواجهم ، وسلطة أجهزة الدولة السرية سلاحها على الشعب بدلاً من العدو ، وامتلات السجون والمعتقلات بالشرفاء ، وأصحاب الرأى وذوى العقول الواعية ، وكان لويس يبطأ القانون حرصاً على سمعة معشوقاته ، وقلد النبلاء سيدهم وفاقوه فى الفجر والعشق ، يمكن أن نقول بلا تجن أنه عهد امتهنت فيه المعانى الإنسانية السامية وفقدت فيه القيم محتواها الأخلاقى ، وأصبحت كلمات الشرف والحفاظ على العرض مثيرة للازدراء والسخرية ، إنها بلا شك فضائح العهد الأعظم لعصر لويس الـ ١٤ ولا يمكننا فى هذه الصفحات القليلة أن تعرض الكثير منها ، بل ستقرأ سوياً بعض السطور ، وأعتقد أنها كافية لنعى ونفهم ما جرى ..

ولعل أخطر فضائح عصر لويس هى فضيحة مدموازيل « فرانسوا زدى مورتمار » ، وهى فتاة ذات جمال من النوع الأخاذ القهار ، الذى لا حول للعقل حياله ولا قوة ، والذى لا ترضى العين أن تفارقه فى الوقت الذى لا تقوى أن تواجهه ، جمال الشمس تحس به النفوس ، وتهفو إليه القلوب ولكن لا تتسامى إليه الأنظار ، وهذه الفتاة كانت تتصارخ مع مدموازيل « دى لافالير » التى كانت أقل منها جمالاً وفتنة ومع ذلك فإنها استأثرت بقلب لويس الـ ١٤ ، ولم يطل الانتظار حيث لم يلبث الملك أن وقع فى شرك جمالها فاتخذها فوراً خليفة له ، وهام بها هياماً جعله يتخطى فى

سبيل إرضائها كل الحدود ، ويتجاوز سائر الاعتبارات ، حتى لقد بنى لها قصرًا بضواحي باريس كاد يحكى فى العظمة قصر فرساي ، بل فوق ذلك أعد لها فى قصر فرساي نفسه عشرين حجرة لها ولحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة ، ومنح أخاها لقب مارشال فرنسا ، وعين والدها حاكمًا عامًا لمدينة باريس ، ووزقت من الملك سبعة أولاد - رغم أنها كانت متزوجة من رجل آخر -

ولكن الزمن لا يصفو ، والحياة لا بد وأن يشوبها الألم ، والسماء لا تسكت عن جريمة الزنا المفضوح حتى وإن طال المدى ، فلقد اشتد غضب الزوج المنكوب وقصد إحدى الحفلات التى تسهر بها زوجته ، ووضعتها أمام الملك لويس الـ ١٤ مذكرًا إياه بالعرف والأخلاق ، تاليا عليه آيات من الإنجيل تتوعد الزانى والزانية بالعقاب العاجل فى الدنيا والقصاص الآجل فى الآخرة ، وكان جميع الحاضرين يسخرون من الزوج المثلوم ، ولكن الملك أحس بالخوف داخله وخشى أن يطالب الزوج بأبنائه - أى أبناء الملك - من زوجته ، وله الحق القانونى فى ذلك ولما يش الزوج من إمكانية أن يسترد زوجته لبس السواد وتوجه إلى الملك فى شكل حزين جعل الكثيرين يتعاطفون معه ولكن الشاعر موليير ألف رواية تسخر من الزوج مؤكداً فى جملة أخيرة فى روايته هذه الكلمات :

« يا ليت شعري هل فى مشاركة الأرباب .. عار » وتشاء الظروف أن رجال الزوج المسكين يتشابكون مع عمدة قرية فرنسية ، ويصدر الوزير الأعظم بناء على توجيهات الملك إلى رجال الشرطة وحاكم المقاطعة ضرورة إدانة الزوج مع الحفاظ على مظاهر احترام العدل والقانون ، وأحس الزوج بالمؤامرة فقر إلى أسبانيا ملتصقاً بالعدل من الله بعد أن يمس من عدل البشر ، وأوعز الملك إلى خليلته أن تطالب بالطلاق وتم ذلك بعد أن لوح جلالته لكبير القضاة بكرسى وزارة العدل ، ووصلت معشوقاته إلى أكثر من عشرة بينما المتعة العابرة لنساء متزوجات وصلت إلى أكثر من مائتى امرأة وبدأت شمس فرانسواز تأفل ، عندما عشق الملك فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها شقراء كالسنبله تدعى أنجليك إلا أن الغيرة جعلت فرانسواز تقتلها بالسم ، وقال البعض إنها قتلتها عن طريق السحر حيث ثبت أنها كانت تزور مجمع السحرة ، ولكن القدر الذى كان لها بالمرصاد فقد عاشت ٢٧ عاماً فى دير معزولة حتى ماتت .

ظل لويس ال ١٤ يحكم حتى بلغ سن ال ٧٧ وهى أطول مدة حكمها ملك فى تاريخ فرنسا ، وقد توفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥م ، ولقد أمضى لويس نصف فترة حكمه فى حروب ، وكان ميالاً للبدخ وحياة العظمة ، ممتلئاً بالغرور ويرفض الاستماع إلى أى نصيح أو إرشاد ، يظن نفسه العبقري الوحيد على وجه الأرض .

ولويس ال ١٤ يتنمى إلى أسرة البوريون التى حكمت فرنسا بداية من عام ١٥٨٩ حيث أسسها هنرى الرابع ، وبشاء القدر أن تنتهى مدة حكمها بعد مائتى سنة أى فى سنة ١٧٨٩ حيث تنشب ثورة فرنسا العظمى ، وإذا كان قد أطلق على لويس ال ١٤ يوم مولده « لويس هبة الله » ، فإن الشعب الفرنسى عند مماته ودعه دون أن يذرف دمعة عليه ، وكأنه ارتاح من كابوس ظل جاثماً على صدره لأكثر من سبعين عامًا .

وإذا كان لويس ال ١٤ قد تميز بعينين كسنتائيتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام ، وشكل ناعم ، فإنه فى ذلك لم يختلف عن الطغاة ، ولعل الأعجب من ذلك أيضاً أن عائلة الطغاة دائما قليلة العدد باستثناء نابليون بونابرت ، فإن معظم الطغاة لا نجد إلا شقيقاً واحداً لهم ، أو لا يوجد على الإطلاق وهكذا لا نستغرب أنه كان للويس ال ١٤ شقيق ولد بعد سنتين من ولادة لويس وقد أطلق على أخ لويس « فيليب دوق أنجو » . وقد أحب مرة واحدة فى حياته فتاة تدعى « مارى ماتشيني » إيطالية الأصل وهى بنت أخت الوزير الأكبر « مازران » وكتب لها عدة رسائل ولكن الملكة الأم حرمتها من حبه الأول والأخير وزوجته زواج مصلحة . عاش حياته مسرفاً مبذراً الكثير من الأموال على الحفلات وهو الذى وضع تصميم قصر فرساي ليكون مقراً للحكم بداية من

١٦٧٠ م .

ولقد ظل لويس طول حياته مصاباً بمرض خطير ، يعرف في عالم الطب باسم « الدودة الوحيدة » ولم يستطع أطباؤه شفاؤه منها مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه ، وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل .

وقبل أن يسير إلى النهاية نظر بحسرة لمن حوله وقال : « لقد كنت أعتقد أنه من العسير على أن أموت » تماماً مثل عبارات ستالين وموسوليني وهتلر وأتاتورك .

وفي الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥ لفظ لويس الـ ١٤ أنفاسه الأخيرة قبل أن يبلغ سن السابعة والسبعين بثلاثة أيام ، ودقت أجراس السماء معلنة نهاية طاغية ورث الحكم المطلق عن آباءه وأجداده ، ولكنه فاقهم طغياناً وجبروتاً ، آمن من البداية أنه مصدر كل السلطات ، ونسى أن الشعوب لا تفرح بالأمجاد المزيفة وبالبريق اللامع الذى هو فى الواقع لا يمنح التقدم ولا يحمى الحرية ولا يبنى السلام .